الإبستمولوجيا (Epistemology) هي (مبحث نقدي في مبادئ العلوم وفي الأصول المنطقية لهذه المبادئ[1]). أو هي نظرية العلوم أو فلسفة العلوم أو دراسة مبادئ العلوم وفرضياتها ونتائجها دراسة نقدية تؤدي إلى إبراز أساسها المنطقي وقيمتها الموضوعية. وعليه فإن الإبستمولوجيا تختلف عن دراسة مناهج العلوم وطرق تدريسها من جهة، وعن دراسة تركيب القوانين العلمية من جهة أخرى، لأن الدراسة الأولى قسم من المنطق التطبيقي، في حين أن الثانية قسم من الفلسفة الوصفية أو فلسفة التطور[2].

تتكون كلمة الإبستمولوجيا من مقطعين الأول هو Epistemo وهو مشتق من الكلمة الإغريقية Episteme بمعنى المعرفة، أما المقطع الثاني Logy فيعني العلم بوجه عام. ومن ثم فقد أطلق الكثيرون على الإبستمولوجيا (علم المعرفة[3]).

بيد أنه ينبغي التفريق بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة، لأن نظرية المعرفة تعد مبحثاً في النسبة بين الذات العارفة والموضوع المعروف، مثل كيف يمكنني أن أعرف على نحو يقيني ما إذا كانت العصا المغموسة إلى نصفها في الماء منكسرة في حقيقة الأمر، أم غير منكسرة؟ يمكنني أن أعرف على نحو يقيني إذا كنت أتذكر حقاً حادثة مضت أو أن الأمر لا يعدو أنني أتخيلها فحسب، وما إذا كنت الآن يقظان أم حالماً؟ أفليس من المحتمل أن أكون ضحية وهم واحد لا ينقضي[4]؟ ولكن تحت تأثير التقدم العلمي في حقل الفيزياء خاصة، أصبحت، الإبستمولوجيا هي الشائعة في قرننا هذا، فقد أصبحت خطاباً حول أسس الخطاب العلمي نفسه، كما هو الحال عند الفيلسوف الفرنسي جاستون باشلار[5].

أما كلمة تكويني Genetic، فهي نسبة إلى تكوين، أي ما يتعلق بتكون كائن أو ظاهرة أو نظام، والنهج التكويني دراسة علم من العلوم عن طريق تبين تكوينه[1].

أما (التكوين) عند (بياجيه) فيرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم البنية Structure الذي يخضع بدوره لمبادئ التحول والتطور: فالتكوين هو انتقال من الحالة (أ) إلى الحالة (ب)، التي ينبغي أن تكون أكثر تطوراً وثباتاً من الحالة

(أ).. أي أنه يشكل مجموعة نظم تحددها التحولات والتطورات الحاصلة خلال مرحلة الانتقال من (أ) إلى (ب). وعلى هذا الأساس بالذات يحصل تطور الطفل فتتم عملية التكوين والبناء بشكل متداخل ومستمر إلى أن ينتقل الطفل من حالة البنية المترجرجة إلى حالة البنية المستقرة والثابتة[2].

والبنية عند (بياجيه) نسق من التحويلات A System Of Transformations ومن حيث كونها نسقاً، وليست مجرد تجميع لعناصر وخواصها، فإن هذه التحويلات تتضمن قوانين، وتحفظ البنية وتثرى بواسطة تفاعل قوانين تحويلاتها، والتي لا تثمر أبداً نتائج خارج النسق، كما لا تستخدم عناصر من خارجها. وبالاختصار فإن فكرة البنية عند (بياجيه) تشتمل على ثلاث أفكار رئيسية[3].

1- فكرة الكمال Wholeness.

2- فكرة التحويل Trasformation.

3- فكرة التنظيم الذاتي: Self – Regulatioon

ومن ثم فنحن نجد أن (بياجيه) قد تجاوز نظريات التطور عند لامارك ومن تبعه في البيولوجيا، ونظرية السلوكية وتأثيرها في علم النفس من جهة، و مدرسة الجشطلت Gestalt من جهة أخرى. فقد توصلت اللاماركية والسلوكية إلى فكرة التكوين فقط دون أن تصل إلى مفهوم البنية الكاملة. واتخذت الجشطلت طريق البنية وركزت عليها، لكنها لم تعتمد فكرة التكوين، أي أنها اعتمدت على وجود البنيات بشكل مستقل، دون الاعتماد على مراحل النمو والتطور، وعملية الانتقال والتحول[1].

تنقسم إبستمولوجيا (بياجيه) التكوينية إلى فرعين: يبحث الأول في مبادئ العلوم، ويهدف إلى تقويمها بغية تفسير التطور الفكري للإنسان وصولاً إلى وضع رؤيا مستقبلية لهذا التطور. ويسمى هذا الفرع (علم تاريخ المعرفة) رغم كونه أقرب إلى الفلسفة منه إلى العلم في مفهومنا الحديث. وفي هذا المجال يعتبر (جاستون باشلار) بمؤلفاته المتعددة سيدا مطلقاً في القرن العشرين[2] في هذا الميدان . أما الفرع الثاني فإنه يبحث في تطور المعارف عند الإنسان الفرد منذ الولادة وحتى بلوغه سن الرشد، ويهدف إلى أمرين:

الأول: تفسير الظواهر المعرفية. فإذا استخدم منهج العلوم التجريبية اندرج تحت عنوان علم النفس المعرفي، وإذا استخدم نتائج التشريح الدماغي والعصبي، يسمى عندئذ علم نفس الأعصاب.

والثاني: تحليل كيفية توصل الطفل إلى المعرفة، وتفسير عملية التطور الفكري ويسمى في هذه الحالة الإبستمولوجيا التكوينية[3].

النص 1 لـ: جان بياجي، الابستمولوجيا التكوينية، تر. السيد نفادي، دار التكوين، بيروت، 2004، ص ص 24-26.

المطلوب: قراءة النص جيدا ثم استخراج المصطلحات الغامضة والبحث عن معانيها، واستخراج الافكار الاساسية ثم الفكرة العامة مع تحديد رأي صاحب النص.